



الوقف والحضارة الإسلامية

■ د. عبد الرحمن بن عبد العزيز الجريوي^(*)

إن الوقف يعدُّ مفخرة من مغاخر الإسلام، حيث نشأ وتطور في ظل الحضارة الإسلامية، وقد عرفت الأوقاف منذ عهد النبوة وعبر العصور الإسلامية نمواً وتنوعاً واتساعاً، فشمل كل ما يعتمد عليه الناس في معيشتهم وحاجاتهم الأساسية، ولم يقتصر على العناية بغثات المجتمع فحسب، بل وصل خيره وبره غير البشر من الدواب والطيور وغيرها مما لم يُعرف في حضارة سابقة أو معاصرة.

ومن قرأ تأريخ الوقف سيرى بوضوح أن الدول والحضارات ارتبطت بالوقف ارتباطاً وثيقاً من حيث النهضة والانحطاط والتقدم والقوة وضعفها، وكم كانت الشعوب والأمم في اطمئنان اقتصادي واستقرار اجتماعي في ظلها.

وفي هذه المقالة عرضٌ مختصر يبين مدى ارتباط الوقف بالحضارة واعتمادها - بعد الله - عليه.

(*) المشرف العام على مركز استثمار المستقبل للأوقاف والوصايا بالرياض، وأمين أوقاف جامعة سلمان بن عبدالعزيز بالخرج.

تعريف الوقف:

الْوَقْف لغةً: بفتح فسكون: مصدر وَقَفَ الشيء وأوقفه، يقال: وقف الشيء وأوقفه وقفاً أي حبسه، ومنه: وقف داره على الفقراء لأنه يحبس الملك عليهم، قال ابن فارس: «الواو والقاف والفاء أصل واحد يدل على تمكث في الشيء يقاس عليه»^(١)، ومن هذا الأصل المقيس عليه يؤخذ الوقف، فإنه ماكث الأصل. فالوقف لغة: الحبس، والوقف والتحبيس والتسبيل بمعنى واحد، وهو: الحبس والمنع^(٢)، يقال: وقف وقفاً أي: حبسه، وشيء موقوف، والجمع وقوف وأوقاف مثل ثوب وأثواب ووقت وأوقات.

والفصح أن يقال: وقفت كذا - من دون الألف - ولا يقال: أوقفت - بالألف - إلا في لغة تميمية وهي رديئة، وعليها العامة، وهي بمعنى سكت وأمسك وأقلع^(٣). والحبس: بضم الحاء وسكون الباء بمعنى الوقف، وهو كل شيء وقفه صاحبه من أصول أو غيرها، يحبس أصله وتُسبل غلته^(٤). والفقهاء يُعبرون أحياناً بالوقف وأحياناً بالحبس، إلا أن التعبير بالوقف عندهم أقوى. وقد يُعبر عن الوقف بلفظ الصدقة بشرط أن يقترن معها ما يفيد قصد التحبيس^(٥). وجمع الحبس: حُبُس - بضم الباء - كما قاله الأزهري، وأحبس بالألف أكثر استعمالاً من حبس^(٦)، على عكس (وَقَفَ)، فالأولى فصيحة، والثانية رديئة. أما التعريف الاصطلاحي للوقف: فقد جاءت تعريفات الفقهاء للوقف متباينة، ويُعزى ذلك إلى الاختلاف في بعض شروط الوقف؛ فقد عرّفه الحنفية بأنه عبارة عن: «حبس المملوك عن التملك من الغير»^(٧). وعرّفه المالكية بقولهم: هو «إعطاء منفعة شيء مدة وجوده، لازماً بقاءه في ملك معطيها، ولو تقديراً»^(٨). وعرّفه الشافعية بأنه: «حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح»^(٩). وعرّفه الحنابلة بأنه: «تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة»^(١٠). والتعريف الأخير أجودها، إذ هو مأخوذ من قول النبي ﷺ لعمر - رضي الله عنه - : «أحبس أصلها وسبل ثمرتها»^(١١)، ويقصد بذلك حبس العين عن تملكها لأحد من العباد، والتصدق بالمنفعة على الفقراء أو على وجه من وجوه البر»^(١٢).

(١) معجم مقاييس اللغة ٦/ ١٣٥.

(٢) ينظر: مادة (وقف)، القاموس المحيط للفيروز آبادي، ٢/ ٢٠٥.

(٣) ينظر: القاموس المحيط ٣/ ٢٠٥.

(٤) القاموس المحيط ٢/ ٢٠٥.

(٥) كتاب شرح الفاظ الواقفين والقسمه على المستحقين، للحطاب، ص ١١.

(٦) تهذيب اللغة، للأزهري، ٤/ ٣٤٢.

(٧) المبسوط، لشمس الأئمة محمد بن أحمد السرخسي، ٢/ ٢٧.

(٨) شرح منح الجليل، لمحمد بن أحمد المالكي، ٤/ ٣٤.

(٩) تحفة المحتاج بشرح المنهاج، لأحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، ٦/ ٢٣٥.

(١٠) المقنع في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني، لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، ٢/ ٣٠٧.

(١١) سنن النسائي، كتاب الأحباس، باب حبس المشاع، برقم ٣٦٠٧.

(١٢) الوقف في الشريعة والقانون، لزهدي يكن، ص ٧.

التأصيل الشرعي للوقف:

الوقف من أعظم القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، وهو مندوب الفعل، سواء كان وقفاً على جهة من الجهات العامة، كالفقراء، وطلبة العلم، أو وقفاً على القرابة والذرية؛ دلّت على مشروعيته نصوص عامة من القرآن الكريم، وفصلته أحاديث من السنة المطهرة، وعمل به الصحابة رضي الله عنهم، وأجمعت الأمة من السلف والخلف على مشروعيته. ومما يدل عليه من القرآن الكريم: قول الله جل وعلا: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وقد جاء في الصحيحين، عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء^(١))، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: «لن تنالوا البر...» قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «نَحْ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه^(٢). ويدل عليه أيضاً عموم الآيات التي تحت على الإنفاق، وبخاصة صدقة التطوع، وقد تكررت في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المقام، منها على سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. وغيرها من آيات الحث على البر التي تشمل الوقف باعتباره من أمثل وجوهها وأبوابها^(٣).

(١) بيرحاء على صيغة فعيل من البراح وهي الأرض الظاهرة. انظر: لسان العرب، ٤/١٢٧. وهي موضع قبيل المسجد النبوي يعرف بقصر بني جديلة (ينظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص ٩١). على بعد ٨٤ متراً من المسجد، وهي داخلة حالياً في نطاق توسعة المسجد النبوي من الناحية الشمالية. انظر: (تاريخ معالم المدينة، للخيازي، ص ١٨٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث ١٤٦٦.
(٣) يمكن لمن أراد أن يرجع إلى بعض منها أن ينظر على سبيل المثال: سورة البقرة الآيات: ٢١٥، ٢١٩، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٤؛ وسورة آل عمران: الآيتان: ١١٧، ١٣٤؛ وسورة النساء: الآيتان: ٣٨، ٣٤؛ وسورة الأنفال: الآية: ٣؛ وسورة التوبة: الآية: ٥٣؛ وسورة الحج، الآية: ٣٥؛ وسورة القصص، الآية: ٥٤؛ وسورة السجدة، الآية: ١٦؛ وسورة الشورى، الآية: ٤٢؛ وسورة الفرقان، الآية: ٦٧؛ وسورة الحديد، الآية: ١٠.



الفرق بين الوقف والوصية:

يختلف الوقف عن الوصية في جملة أمور، ملخصها فيما يلي:

- الوصية: التبرع بالمال بعد الموت. أما الوقف فهو: تحبّيس الأصل وتسبيل المنفعة، حال الحياة.
- في الوصية: يجوز لصاحبها أن يرجع عنها، وأن يغيّر فيها ما لم يكن في مرض موته؛ لأنها ملك له. أما الوقف: فلا يجوز الرجوع عنه، ولا يحق له أن يغيّر فيه؛ لأنه ملك لله تعالى.
- لا تتجاوز الوصية الثلث، إلا بإجازة الورثة. أما الوقف: فيجوز أن يتجاوز الثلث، مع ضرورة مراعاة عدم الإضرار بالورثة.
- الوصية: لا تجوز لوارث، إلا بإجازة الورثة. أما الوقف: فيصح على وارث.
- في الوصية: الموصى له يمتلك العين والمنفعة فله أن يتصرف بالعين كما يحب. أما في الوقف: فالموقوف عليه يمتلك المنفعة دون العين، فلا يجوز له التصرف بعين الوقف مطلقاً.

وأما نصوص السنة المطهرة الدالة عليه المرغبة فيه فكثيرة: حيث ثبت الوقف بقول النبي ﷺ وفعله وإقراره^(١) بما ورد في شأنه من أحاديث عدة، منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً فإن شيعه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة حسنات»^(٢). وحديث وقف عمر رضي الله عنه، وفيه قوله ﷺ: «إن شئت حبست أصلها وتصدق بها، غير أنه لا يباع أصلها، ولا يبتاع، ولا يوهب، ولا يورث»^(٣). وقد قال الحافظ ابن حجر في هذا الحديث: (وحديث عمر هذا أصل في مشروعيتها الوقف)^(٤). وخبر شراء عثمان بن عفان رضي الله عنه بئر رومة ووقفه لها^(٥). وحديث وقف طلحة بن عبد الله رضي الله عنه، وأمر الرسول ﷺ له بذلك^(٦). ويستدل له كذلك بما ورد عن النبي ﷺ في الصدقة الجارية، من مثل قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٧). وأما فعل النبي ﷺ للوقف فقد ابتداءً بمسجد قباء، ثم المسجد النبوي، كما أوقف ﷺ سبعة حوائط لرجل من اليهود يدعى مخيريق، قتل يوم أحد، وكان قد أوصى بأنه إن أصيب فأمواله لرسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله^(٨). وإما إقراره فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فأما خالد فقد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله»^(٩). أما الإجماع: فقد صرح غير واحد من أهل العلم بأن إجماع الصحابة منعقد على صحة الوقف، فقد ذكر صاحب المغني «أن جابراً رضي الله عنه قال: «لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف»، وهذا إجماع منهم، وقد اشتهر ذلك ولم ينكره أحد، فكان إجماعاً»^(١٠).

وقد ظهر اتفاق الصحابة رضوان الله عليهم على مشروعيتها الوقف، حتى إنهم رضوان الله عليهم سارعوا في الوقف رغبة

في الثواب العظيم من الله تعالى، قال الشافعي رحمه الله: بلغني أن ثمانين صحابياً من الأنصار تصدقوا بصدقات محرمات^(١١). وكان الشافعي رحمه الله يسمي الأوقاف الصدقات المحرمات^(١٢).

ومذهب جمهور العلماء يؤكد الإجماع على الوقف منذ عهد النبي ﷺ وعهد الصحابة والتابعين وعلى مر تاريخ الأمة الإسلامية.

ولذلك: كان القياس أحد أدلة ثبوت الوقف: حيث «اتفق الفقهاء على أن بناء المساجد وإخراج أرضها من ملكية واقفها أصل في وقف الأصل، وحبس أصولها، والتصدق بثمرتها، فيقياس عليه غيره، ويلاحظ أن القليل من أحكام الوقف ثابتة بالسنة، ومعظم أحكامه ثابتة باجتهاد الفقهاء بالاعتماد على الاستحسان والاستصلاح والعرف»^(١٣). ولذا «أقر جمهور العلماء من السلف ومن بعدهم بأن الوقف جائز شرعاً»^(١٤)، وفي هذا يقول ابن قدامة رحمه الله: «وأكثر أهل العلم من السلف ومن بعدهم على القول بصحة الوقف»^(١٥). ويقول الإمام أحمد رحمه الله: «من يرد الوقف، إنما يريد السنة التي أجازها النبي ﷺ وفعلها أصحابه»^(١٦). الشاهد من ذلك أنه لا خلاف بين الأئمة الأربعة في أن الوقف مسنون، فضلاً عن مشروعيته، وأنه قربة إلى الله تعالى، بل إنه من أحسن القرب التي يُتقرب بها إلى الخالق سبحانه وتعالى. يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: «اعلم أن ثبوت الوقف في هذه الشريعة وثبوت كونه قربة أظهر من شمس النهار»^(١٧).

وخلاصة القول في حكم الوقف: أن جمهور الفقهاء^(١٨) من الشافعية والمالكية والحنابلة والحنفية - إلا رواية عن أبي حنيفة وزفر - يقولون إن الوقف جائز شرعاً - بل مندوب إليه -، وإن أصل مشروعيته ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقياس.

(١) ينظر: التصرف في الوقف لإبراهيم بن عبد الله الغصن، ٦٤/١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرساً في سبيل الله، ٢٨٥٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، برقم ٢٦٢٠.

(٤) ينظر: فتح الباري، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، ص ٤٦٩.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الوصية، ١٢٥٥/٢.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث ١٤٦١.

(٧) أخرجه مسلم كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته.

(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٥٠٣-٥٠٤ بأسانيد متعددة. السيرة النبوية لابن هشام ٣/٩٩. البداية والنهاية ٥/٤١٦-٤١٧. وانظر: أحكام الوقف لمصطفى الزرقاء، ص ١٠، وأحكام الوقف لأحمد الخصاص ص ٥.

(٩) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم ٩٨٣.

(١٠) ابن قدامة، المغني، ١٨٦/٨.

(١١) ينظر: مغني المحتاج شرح المنهاج، الشربيني، ٢/٣٧٦.

(١٢) ينظر: مغني المحتاج للشربيني، ٢/٣٧٦.

(١٣) الأحكام الفقهية والاسس المحاسبية للوقف، د. عبد الستار أبو غدة ود. حسين شحاتة، ص ٤٨.

(١٤) مغني المحتاج ٢/٣٧٦-٣٧٧ المغني ٨/١٨٥.

(١٥) المغني لابن قدامة، ٨/١٨٥.

(١٦) البدع، ابن مفلح، ٥/٣١٢.

(١٧) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، محمد بن علي الشوكاني، ٣/٣١٣.

(١٨) للوقوف على تفصيل آراء الفقهاء في ذلك يراجع: الأم، للشافعي، ١/٢٧٤-٢٧٥؛ والمدونة الكبرى للإمام مالك، رواية سحنون، ٦/١٥؛ والشرح الكبير على متن المقنع، لابن قدامة المقدسي، ٦/٨٥؛ والمبسوط، السرخسي، ١٢/٢٧؛ والإسعاف في أحكام الأوقاف، إبراهيم بن موسى الطرابلسي، ص ٣.

أنواع الوقف:

١. يُستتبط مما ذكره الفقهاء من صور الوقف أنه يمكن أن يقسم إلى أقسام ثلاثة:
٢. الوقف الخيري أو «الوقف العام»: وهو يصرف ريعه إلى جهات البر التي لا تنقطع.
٣. الوقف الأهلي أو «الخاص»: وهو ما يطلق عليه الوقف الذري، ويسمى في المغرب الأحباس المعقبة^(١)، وهو تخصيص ريع للواقف أولاً ثم لأولاده ثم إلى جهة بر لا تنقطع.
٤. الوقف المشترك: وهو ما خصصت منافعه إلى الذرية وجهة بر معاً.

خصائص الوقف:

١. يتميز الوقف بمزايا عظيمة أكسبته قوة وفاعلية استمر أثرها قروناً طويلة، ولعل من أبرزها:
٢. امتناع التصرف في أصل الوقف، وقد تحقق بهذا المبدأ حماية الوقف وعدم تعريضه لطيش المتولين عليه أو سوء نيتهم، وهو ما جعل الأصل في الوقف الاستمرار والبقاء. هذا وقف عثمان رضي الله عنه الذي ورد اسمه في أسماء المؤسسين في جبل عمر بمكة (بمبلغ عيني يمثل: ٩٢٩, ٥٣٧, ١٠ ريال)^(٢). وقد درس باحث أمريكي حال أكثر الأسر الأمريكية ثراء منذ تأسست أميركا وماذا آل إليه حال الورثة بعد سنوات طويلة، فوجد أن عائلة الشري الأمريكي (روك فلر) هي الوحيدة من بين قدماء العوائل الثرية التي احتفظت بأبنائها وبناتها بترائهم بعد وفاة عميد الأسرة بمائة سنة، والسبب أنه: منعهم من بيع أصول التركة وأوصى بتوزيع العائد عليهم وجزء منه للمشاريع الخيرية^(٣).
٣. ما استقر لدى الفقهاء من أن شرط الواقف الصحيح مثل حكم الشارع، فتحققت بذلك حماية الوقف واطمئنان الواقف إلى استمرار صرف وقفه في الأغراض التي تهمه ويُعنى بها، وتحقق بذلك سهولة إدارته، بل سهولة تشكيكه وإمكانية بناء أنظمتهم حسب الحاجة والرغبة بما لا يتعارض مع القواعد الشرعية.
٤. ولاية القضاء على الأوقاف، فتحققت بذلك حماية

(١) تجربة الأوقاف في المملكة المغربية، لدرويش عبد العزيز، ص ١١.

(٢) بحسب ما ورد في نشرة الاكتتاب الخاصة بشركة (جبل عمر) والمنشورة على موقع هيئة سوق المال.

(٣) مقال بعنوان: وقف عثمان رضي الله عنه للكاتب: عبدالله الجعيثي. (الموقع الإلكتروني لمركز استثمار المستقبل للأوقاف والوصايا).

الوقف من تدخل الحكومات^(٤).

٤. تنوع الأموال الموقوفة بحيث يصح وقف ما يُملك على الصحيح من أقوال الفقهاء، فكان ذلك سبباً لفتح باب الوقف على مصراعيه أمام مريديه من كل فئات المجتمع.
٥. تنوع مجالات صرفه، بحيث تتسع لاحتياجات الناس ومصالحهم، وهكذا كان الوقف عبر مراحل التاريخ الإسلامي، حيث كان يقوم بجميع مصالح رعايا الدولة المسلمة.
٦. حفظ الله للمال الموقوف ورعايته له، وشواهد التاريخ على ذلك مبرهنة، وإليك أيها القارئ الكريم خبر هذا الوقف الذي يوضح هذه الخاصية: ذلك هو وقف عائشة المرشد بمحافظة الرس، التي أوقفت عام ١٢١٣هـ قطعة أرض خارج البلد، وجعلت ريع الوقف على محفظي القرآن الكريم، وظل الوقف قرابة مائتي عام لا يعرف، إلى أن أحياء - بأمر الله - قاضي البلد في تفصيلات طويلة، وقبل سنوات صارت الأرض الموقوفة داخل البلد، فبيعت بثلاثين مليون ريال، لجمعية تحفيظ القرآن الكريم بمحافظة الرس، والآن تقدر قيمة الوقف بـ ١٥٠ مليوناً، فإذا صلحت النية تقبل الله العمل وحفظه وبارك فيه، ولك أن تعرف أن هذه المرأة - عائشة المرشد رحمها الله - لم تعرف لها ذرية، وإنما تولى هذا كله واستخرجه بعد ضياع وأحياء - بأمر الله - قاضي الرس في حينه معالي الشيخ عبدالعزيز بن حمين الحمين، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سابقاً، وهو الذي حدثني شخصياً بخبر هذا الوقف.
٧. النماء والبركة في المال الموقوف، حيث هو تجارة مع الله جل وعلا، ولعلنا هنا نكتفي بإيراد مثال معاصر تتبين من خلاله هذه الميزة العظيمة للوقف: إنه وقف الحاج رحيم في مكة «حاج من تركستان»: حيث وقفه صاحبه عام ١٣٠٧هـ، وكان أصل هذا الوقف عبارة عن غرفتين فقط، وفي عام ١٣٨٩هـ أصبح ريعه ٣٠٠,٠٠٠ ريال، وفي عام ١٤١٦هـ كان الوقف يملك ثلاثة أبراج في مكة، ثم حصلت للوقف نقلة كبيرة عندما تولى النظارة عليه أستاذ جامعي، فنضج له وطور استثماراته وحوله لإدارة مؤسسية، فأصبح الوقف في عام ١٤٢٣هـ يملك أحد عشر برجاً في مكة يقدر أحدها بـ ٤٠٠ مليون ريال، وبعد التوسعة الحديثة للحرم أصبحت بعض أبراج هذا الوقف تطل على ساحات الحرم مباشرة، وقد حدثني بخبر هذا الوقف الشيخ سعد بن محمد المهنا، رئيس محكمة القطيف، وهو من المهتمين بموضوع الأوقاف وله فيها جهود مباركة.

(٤) الخصائص الثلاث من محاضرة الشيخ صالح الحصين حفظه الله، بعنوان: (تطبيقات الوقف بين الأمس واليوم، وهي من مطبوعات مركز استثمار المستقبل للأوقاف والوصايا بالرياض).

نماذج من الوقف عبر التاريخ الإسلامي:

من أشهر ما يمكن الإشارة إليه في استعراض نماذج الأوقاف وشمولها شتى مناحي الحياة، ما يلي:

١. الوقف على القرآن والحديث والمساجد والعلم، وما يتعلق به من إنشاء المدارس والجامعات، والمكتبات، وصرف الرواتب على الطلبة والمعلمين: فقد كانت المساجد أول وقف في الإسلام، حيث بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء (أول وقف في الإسلام)، ثم بنى مسجده ﷺ، وكان الناس يتسابقون إلى إقامة المساجد والصرف عليها، والتأريخ يسجل بإعجاب كثرة الأموال التي أنفقها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على بناء الجامع الأموي بدمشق مما لا يكاد يصدق الإنسان لكثرتها^(١). ومما ذكر من مآثر نور الدين زنكي أنه بنى في بلاده مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن أوقافاً كثيرة، إذ يروي الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محال دمشق من مساجد هجرت أو خربت، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارته وعيّن له أوقافاً دائرة.

أما أوقاف العلم فقد ذكر بعض المؤرخين أنها وجدت في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، وكانت من الكثرة بحيث عدّ ابن حوقل ثلاثمائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية^(٢). وكان «الكتاب» في بعض البلدان من السعة بحيث يضم مئات وآلاف من الطلاب، ومما يروى عن أبي القاسم البلخي أنه كان له كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتابه فسيحاً جداً، ولذلك كان أبو القاسم يحتاج إلى أن يركب حماراً ليتردد بين طلابه وليشرف على شؤونهم^(٣). وكانت هذه الكتابات تمول بأموال الأوقاف.

٢. الوقف على توفير الماء: حيث تبارى المسلمون في إنشاء الأسبلة، باعتبارها نوعاً من الصدقة الجارية التي يصل ثوابها إلى صاحبها حتى بعد موته، فقد روي عن سعد بن عباد رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله! أي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»^(٤). وقد كانت الأسبلة تقوم مقام مرفق المياه حالياً. ومن أشهر الأسبلة: عين زبيدة بمكة، وموجودة آثارها حتى هذا اليوم.

٣. الوقف على توفير الغذاء: تنافس المسلمون في تخصيص الأوقاف لإطعام ذوي الحاجة من البائسين وأبناء

السبيل والمغتربين في طلب العلم، وقد تبارى المسلمون في إنشاء (التكايا) التي كان لها دور بارز في توفير الطعام لطوائف كثيرة من الفقراء والمساكين وابن السبيل وطلبة العلم، ولم يقتصر دور التكية على تقديم الطعام والشراب، بل كانت مؤسسة إسلامية متعددة الأغراض تستخدم لاستضافة الغرباء والمسافرين، وإيواء الفقراء، وطلبة العلم. وقد أبدع الواقفون في عمارة التكايا وتصاميمها، بحيث لا تبدو مجرد مأوى أو مطعم. واشتهرت الجامعات الإسلامية العريقة، مثل الأزهر، بتوزيع ما عُرف بالجارية، وهي وجبات طعام يومية على طلابها، وكان يتم تمويل هذه الجاريات من عوائد الأوقاف.

٤. الوقف على البلاد المقدسة: ومن أشهر ملوك الإسلام الذين اعتنوا بهذه الأوقاف صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس. ٥. وقف الدور: لإيواء اليتامى واللقطاء ورعايتهم، ولرعاية المقعدين والعميان والشيوخ، ووقف الدور هو أشهر أوقاف الصحابة^(٥).

٦. الوقف على الرعاية الصحية: تجلّى الدور البارز للوقف في المجال الصحيّ منذ القرن الأول الهجري، حيث اتخذت البيمارستانات، وأوّل مَنْ اتَّخذها للمرضى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك؛ حيث بنى بيمارستاناً بدمشق سنة ٨٨ للهجرة وسبَّله للمرضى. وقد أبدى الوليد اهتماماً خاصاً بمرضى الجذام، ومنَعَهُمْ من سؤال الناس، ووقف عليهم بلداً يدرّ عليهم أرزاقاً، كما أمر لكل مُقْعِدٍ خادماً، ولكلّ ضرير قائداً^(٦). ويذكر ابن جبير في رحلته أنه وجد ببغداد حياً كاملاً من أحيائها، يشبه المدينة الصغيرة، كان يسمّى سوق البيمارستان، ومباني كثيرة كلها أوقاف وقُفّت على المرضى، وكان يؤمّه الأطباء والصيادلة وطلبة الطب، إذ كانت النفقات جارية عليهم من الأموال الوقفية المنتشرة في بغداد^(٧). وبلغ الاهتمام بالبيمارستانات الموقوفة مَبْلَغاً عظيماً من الرقي والاعتناء والتقدّم؛ حتى ذكر بعض المؤرخين أن شخصاً كان مَتمارِضاً في هذا المستشفى فكتب له الطبيب بعد ثلاثة أيام من دخوله: بأن الضيف لا يُقيم فوق ثلاثة أيام^(٨). وكان من اهتمامهم ودقّتهم في هذه المستشفيات التي أقاموها أنه لم يكن يؤدّن لأحد بمباشرة عمله حتى يكون كبير الأطباء قد شهد له بالمعرفة الكاملة والضبط والدقة، ونتيجة لخطأ طبي حدث في زمن الدولة العباسية وتحديداً في زمن الخليفة المقتدر عام ٣١٩ توفي بسببه أحد المسلمين، فكان أن

(٥) ينظر: الأوقاف النبوية ووقفات بعض الصحابة الكرام، ص ١٦٧.

(٦) ينظر: الكامل، ابن الأثير ٢٩٢/٤؛ والجوهر الثمين، ابن دقماق، ص ٦٥.

(٧) التذكرة بالأخبار في اتفاقات الأسفار، ابن جبير.

(٨) ينظر: التمرّيز في التاريخ الإسلامي، عكرمة سعيد صبري، ص ٢٩ - ٣٠.

(١) من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، (ص ١٢٥).

(٢) ينظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي، ٤١٧/٣ - ٤١٨؛ ومجلة الوعي الإسلامي، عدد (٢٨٢)، ص ٣٧.

(٣) ينظر: معجم البلدان ٤٧٩/١ - ٤٨٠؛ ومجلة الوعي الإسلامي عدد (٢٨٢) ص ٣٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل صدقة الماء، برقم ٣٦٨٤.

أمر الخليفة بمنع سائر المتطبلين إلا من امتحنه كبير الأطباء سنان بن ثابت بن قره. ومن لطيف الأوقاف الطبية: ما يعرف بوقف مؤنسي المرضى الذي خُصص ريعه لرعاية قوم عملهم الأساس إدخال السرور على قلوب المرضى وإيناسهم، مما يكون سبباً بإذن الله لشفايتهم، فهل عرف التاريخ مثل هذا؟ وتأكيداً على رقي هذه الأوقاف جاء في كتاب الدكتور الألمانية زيفريد هونكة «شمس العرب تسطع على الغرب»، وصفاً للمستشفيات في عهد هارون الرشيد من خلال عرض رسالة من مريض إلى أبيه يقول فيها: «أبتي الحبيب، تسألني إن كنت بحاجة إلى نقود، فأخبرك بأنني عندما أخرج من المستشفى سيعطونني ثوباً جديداً وخمس قطع ذهبية حتى لا أضطر إلى العمل حال خروجي.. واليوم قال لي رئيس الأطباء: إن بإمكانني الخروج من المستشفى معافى وأنا أكره ذلك».

٧. الوقف على سكنى الحجيج وإطعامهم وسقياهم وعلى طريق الحج: فقد وقف عمر رضي الله عنه داره التي في مكة على الحجاج، وتصدق عمر بن عبد العزيز رحمه الله بداره على الحجاج والمعتمرين^(١). وأعمال زبيدة زوجة الرشيد رحمهما الله في سقيا الحجيج أشهر من أن تذكر^(٢). ووقف المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي ضيعة له لعمل طعام بمنى أيام الحج^(٣). ووقف السلطان أحمد بن محمد بن مراد أوقافاً على طريق الحج بين مصر ومكة^(٤).

٨. الوقف على العاجزين عن الحج: ذكر ابن بطوطة رحمه الله في رحلته أثناء حديثه عن الأوقاف في دمشق أن منها أوقافاً على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته^(٥).

٩. الوقف على الأيتام والأرامل: وقد اعتنى الوقف الإسلامي بالأرامل والمساكين انطلاقاً من توجيهات النبي ﷺ، ويعتد الزبير رضي الله عنه أول من وقف وقفاً لصالح الأرامل والمطلقات من بناته، وهذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يشير إلى الاهتمام بهذه الفئة فيقول: «لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً»^(٦). وقد ذكر ابن العماد الحنبلي رحمه الله في ترجمة نور الدين زنكي رحمه الله سنة ٥٦٩ أنه بنى المكاتب للأيتام ووقف عليها الأوقاف^(٧).

١٠. الوقف على الأولاد والأقارب والذرية: قال الحميدي:

(١) ينظر في خبر العمريين: أخبار مكة ٢/٢٦٣ - ٢٤١/٢.

(٢) ينظر: أخبار مكة ٢٢٧ - ٢٢٧.

(٣) كتاب نسب قریش لمصعب الزبيری، ٢/٣٠٥ - ٣٠٦.

(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحيي، ١/٢٩٠.

(٥) تحفة النظار، لابن بطوطة، ١/١١٨.

(٦) الخراج، ليحيى بن آدم القرشي، ص ٥٩.

(٧) شذرات الذهب ٤/٢٢٨.

«تصدق أبو بكر بداره على ولده، وعمر بربيعه على ولده، وعثمان برومة، وتصدق علي بأرضه ببينبع، وتصدق الزبير بداره بمكة، وداره بمصر، وأمواله بالمدينة على ولده، وتصدق سعد بداره بالمدينة على ولده، وداره بمصر على ولده، وعمرو بن العاص بالوهط^(٨)، وداره بمكة على ولده، وحكيم بن حزام بداره بمكة والمدينة على ولده، فذلك كله إلى اليوم»^(٩). «والزبير جعل دُورَه صدقة على بنيه، لا تباع ولا توهب، وللمردودة من بناته السكنى غير مضرة ولا مضراً بها، فإن استغنت بزواج فلا حق لها فيه»^(١٠). وفي هذا تنبيه على مصرف ذي أهمية، وهو المطلقات، خاصة بنات الواقف.

١١. الوقف على الثغور والجهاد وفكالك الأسرى، ولك أن تتخيل كيف سيكون حال الأمة اليوم لو وُجدت فيها مثل هذه الأوقاف.

١٢. الوقف على أبناء السبيل.

١٣. الوقف على إعمار الأوقاف: وهذا من اهتمامهم بالوقف وعنايتهم به، وقد قرر الفقهاء أن نفقة إعمار الوقف تكون من حيث شرط الواقف، فإن لم يكن عيناً مصدراً فإنها تكون من غلته^(١١)، وقد تُوَفِّق الأوقاف لإحياء أوقاف سابقة لأهميتها أو لحل موقفها، وقد ذكر أن بعض خلفاء بني العباس كانوا يوقفون بعض الضياع على إعمار صدقات النبي ﷺ^(١٢).

١٤. الوقف على التزويج وأوقاف للحلي والزينة للأعراس وغيرها: وهو من غرائب الوقف، وقد ذكر ابن بطوطة أنه وجد وقفاً بالشام لتزويج البنات الفقيرات اللواتي لا قدرة لأهلن على تزويجهن. وكذا في تونس والمغرب. وفي أكثر من بلد إسلامي كان هناك وقف لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح، فيستفيد منها المحتاج لأجل التزيُّن بها في الحفلات، ثم يُعيدها إلى مكانها بعد انتهائه منها^(١٣).

١٥. وقف الأواني وحاجات الموالى: وقد كان هذا الوقف مثار إعجابٍ للرحالة ابن بطوطة، إذ يقول: «رأيت في دمشق مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها، وذهب إليه فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن»^(١٤).

١٦. أوقاف لتزهر الفقراء والمساكين بأولادهم: ومن ذلك

(٨) الوهط: ما كان لعمر بن العاص بالطائف على ثلاثة أميال من مرج.

(٩) المغني لابن قدامة ٨/١٨٥ - ١٨٦.

(١٠) المغني لابن قدامة ٨/٢٠٥ - ٢٠٦.

(١١) المغني ٨/٢٣٤.

(١٢) الأخبار الموقفات للزبير بن بكار، ص ٤٩١ - ٤٩٢، تحقيق: سامي مكي العاني.

(١٣) حاضر العالم الإسلامي، شبيب أرسلان، ٣/٨.

(١٤) المصدر نفسه ص ١٠٠.

الوقف والعمل الخيري عند الغرب:

تنبّهت الدول الغربية اليوم (كالولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا) لأهمية الوقف، وتفتحت أعينهم على أثره، وما يعود به من الاستقرار والتنمية، وما يعطيه للنظام من قوة؛ فسعت جاهدة إلى أن توليه أهمية بالغة، فعلى سبيل المثال: في المملكة المتحدة البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية، هناك نظام يشبه الوقف يسمى (الترست)^(٤)، سنّته هذه البلدان، ونجحت فيما يُعُولّه من مؤسسات وقفية وخيرية؛ فوجد في الولايات المتحدة الأمريكية كبرى المؤسسات والجامعات تقوم على أساس الوقف وتعتمد على ذاتها اعتماداً كلياً، ومن الأمثلة في ذلك: وقف بيل وميليندا جيتس الذي يعد من أضخم الأوقاف في عصرنا الحاضر. وهذا الوقف مقره (واشنطن)، وأسسّه: بيل غيتس وزوجته مليندا في عام ١٩٩٤م، وتقدر قيمة رأسماله حتى الآن بأكثر من (١٣٦,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ريال^(٥)، كما يسهم فيه أثرى أثرياء العالم، ويعمل في ثلاثة مجالات رئيسية، هي: الصحة العالمية، والتنمية العالمية، وبرامج خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية؛ ويتبع الوقف منهج الشراكة مع الجهات الخيرية. المثال الثاني: وارن بافت رجل الأعمال المعروف، والذي دخل في شراكة خيرية مع مؤسسة بيل وميليندا جيتس الخيرية بـ ٣١ مليار دولار في جون ٢٠٠٦م، لتصبح أكبر مؤسسة خيرية مانحة في العالم متخصصة بالصحة والتعليم وأبحاثهما. واللافت أن وارن بافت انضم إلى مؤسسة بيل غيتس لتكون الشراكة الخيرية بينهم رغم أن عمر الأول (٧٥) سنة وعمر الثاني (٥٠) عاماً، حتى علق المدير التنفيذي للمركز الخيري في جامعة إنديانا قائلاً: «إن معظم من لديهم هذا المبلغ من المال يحاولون تشكيل مؤسسة خاصة تكون مرتبطة بصورتهم الخاصة، إنه يهبها لشخص أصغر منه بخمس وعشرين سنة!». ثم علق وارن بافت بعد ذلك قائلاً: «إنني أشعر بمتعة عميقة بما أقوم به»^(٦).

المثال الثالث: أوقاف جامعة هارفارد التي تأسست في عام ١٩٧٤، والتي تقدر أصولها بما يقارب من ١٢٠ مليار ريال^(٧).

(٤) محاضرة تطبيقات الوقف بين الأمس واليوم، معالي الشيخ صالح الحصين (من مطبوعات مركز استثمار المستقبل بالرياض).

(٥) حسب آخر إحصائية لأصول الأوقاف، في ٣١/١٢/٢٠١٢م، انظر: موقع مؤسسة ميليندا وبيل جيتس الخيرية: <http://cutt.us/zCfU>، وتساوي قيمة الوقف بالدولار الأمريكي: (٣٦,٤) مليار دولار.

(٦) الجمعيات الخيرية ودعاوى الإرهاب، للدكتور محمد السلمي.

(٧) مقال للدكتور إبراهيم البعيز <http://cutt.us/Cc1>.

الوقف الذي أقامه السلطان نور الدين الشهيد قرب ريو دمشق، حيث جعل مكاناً فسيحاً جميلاً ليتنزه فيه الفقراء بأولادهم مثل ما للأغنياء؛ حتى لا يشعروا بالحرمان والمسكنة. ١٧. أوقاف للنساء المرضعات: ومن عجائب الأوقاف في هذا ما ذكره بعضهم: أن أوقافاً خُصصت للنساء المرضعات تسمى «أوقاف نقطة الحليب» يوزع منها الحليب على المرضعات في أيام محددة في كل أسبوع، إلى جانب الماء المذاب فيه السكر، وقد كان ذلك من صنيع القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله^(٨).

١٨. أوقاف لمن يقع بينها وبين زوجها نفور: حيث كان بمراكش بالمغرب مؤسسة وقفية تُسمى «دار الدقة»^(٩)، وهي ملجأ تذهب إليه النساء اللاتي يقع بينهن وأزواجهن نفور، فلهن أن يقمن آكلات شاربات إلى أن يزول ما بينهن وأزواجهن^(١٠).

١٩. أوقاف على رعاية البيئة والحيوانات والطيور: امتدت الأوقاف إلى رعاية البيئة والحيوان فوجدت أوقاف لصيانة الترع والأنهار، وأوقاف لطيور الحرم المكي الشريف، وأنشئت أوقاف لإطعام الطيور والعصافير في مدن عديدة، منها: دمشق والقدس وفاس، وأوقاف للحيوانات الأهلية الهرمة أو المعتوهة لإيوائها وعلاجها كما هو شأن وقف المرج الأخضر في دمشق وغيرها.

إن هذه الأمثلة الناصعة في تاريخ المسلمين توضح بجلاء كيف كانت الأوقاف مكوناً أساسياً للحضارة الإسلامية العظيمة، وكيف شمل خيرها وبرها وأثرها نواحي الحياة بلا استثناء، ويكفي أن تعلم أن الإمام النووي رحمه الله (٦٧٦هـ) لم يكن يأكل من فواكه دمشق وخضرها وأهواها؛ لأن أكثر أراضيتها وقف، وهو الإمام الورع الذي يخشى أن يكون خرج الموقوف عن الوقف بغير استحقاق.

واختصاراً: فإن حقائق التاريخ وشواهد تثبت أن الأوقاف الإسلامية كانت تقوم بجميع مصالح رعايا الدولة المسلمة واحتياجاتهم المهمة بلا استثناء؛ لتخفف وترفع بذلك عبأ كبيراً عن الدولة المسلمة، وتعطي أماناً وطمأنينة لرعاياها. وقد كانت الدول والممالك الإسلامية تزول ويحل محلها غيرها ومصالح المسلمين لا تتأثر بذلك؛ بسبب قيام تلك المصالح على الأوقاف بكل استقلالية عن الدول وسيادتها وتعقيدها، ومحاسنها ومسؤولتها.

(٨) من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، ص ١٢٨.

(٩) الدقة: التوابل المخلوطة بالملح، والمقصود هنا: الدار التي تدق على يد الزوج الظالم المسمى لزوج، حتى توقفه عند حده.

(١٠) الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

سبل النهوض بالأوقاف^(١)؛

تراجع الوقف كثيراً في العصر الحاضر عما كان عليه في عصور قوّته، فلم يعد (مع ضخامة بعض الأوقاف) ملجأً ومعيناً للفقراء مثلاً، أو للحد من ظاهرة البطالة، أو خدمة التعليم والاقتصاد والمجتمع، وكل ذلك بسبب ضعف الأوقاف وتراجعها، ولذلك التراجع أسبابٌ ليس هذا مكان إيرادها.

ولكي يعود الوقف إلى سابق عهده في خدمة المسلمين والقضاء على الفقر والبطالة والنهوض بالاقتصاد، فإن الواجب على صنّاع القرار وأهل الحلّ والعقد اتخاذ إجراءات مهمة، منها:

أولاً: أن يتم تنظيم الوقف بعيداً عن سلطة الحكومات؛ نظراً لما ظهر من فشل الإدارة الحكومية في مجال قطاع الأعمال، واعتبار الأوقاف أموالاً خاصة تدار بطريقة معينة. وقد أدى إطلاق أيدي الحكومات في إدارة الأوقاف إلى إحجام المسلمين عن وقف أموالهم، حيث تولد لديهم إحساس بأن الأوقاف يتم تأميمها واستخدامها في غير الأغراض التي حددها الواقف. والقاعدة: أن شرط الواقف كنص الشارع، فلا يصح مخالفة الشرط إلا إذا خالف نصاً شرعياً. ثانياً: إعادة النظر في القوانين التي تعوق الوقف، وتنظيمها في ضوء الأحكام الشرعية الغراء، ووضع نصوص صارمة للحفاظ على أموال الوقف.

ثالثاً: وضع نظم مرعية لقياس وتقويم الأداء في الأوقاف، حيث تعد ضماناً لاستمرار نجاح الوقف، بحيث يمكن المحافظة على الأداء المتميز وتطويره، والتعرف على الأداء الضعيف ومعرفة أسبابه ومعالجتها.

رابعاً: تطبيق معايير عالية في التنظيم المحاسبي، فالمحاسبة المالية من المنظور الإسلامي تشمل تعيين الحقوق والكشف عن الوضع المالي ونتائجه، بكيفية يراعى فيها التمييز بين الحلال والحرام.

خامساً: القيام بعمليات توعية في وسائل الإعلام، خصوصاً الحديث منها، للتوعية بأهمية الوقف وحث المسلمين على الاشتراك في وقفيات خيرية أو وقف جزء من ممتلكاتهم.

(١) ينظر في هذا بحث جميل للدكتور خالد المشيقي بعنوان: الأوقاف في العصر الحديث، وهو من أحسن ما كتب في هذا.

الوقف واستثمار المستقبل؛

من محاسن شريعة الإسلام أن شرعت لأهلها ما ينفعهم ديناً ودنياً، ليس هذا حال كونهم أحياء فحسب، بل بعد موتهم، فإذا كانت صحائف بعض العباد تطوى بعد موتهم، فهناك من لم تطو صحائف أعمالهم بعد رحيلهم! روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: «لم نر خيراً للميت ولا للحَي من هذه الحبس الموقوفة، أما الميت فيجري أجرها عليه، وأما الحي فتحبس عليه، لا توهب، ولا تورث، ولا يقدر على استهلاكها»^(٢). ولكن كثيراً من الناس عن هذا قد غفلوا، وأنشغلوا في أمور الحياة، والتكاثف في الأموال والأولاد، وقَلَّمَا نجد من يعتني بهذا وينتبه له، مع أن ذلك من الأمور المهمة التي عن طريقها تتحقق سعادة الإنسان في آخرته، وتزداد أعماله الصالحة، وهو بهذا يعد وسيلة عظيمة بعد انقضاء أجل لرفع الدرجات، وتكفير السيئات، واستمرار الثواب، هذا من جانب النفع العائد على الواقف، أما المنافع التي تعود على المجتمع - وبخاصة في عصرنا الحاضر - فكثيرة، من أهمّها: التكافل بين أفراد المجتمع، وتميئته، وتكاتف أهله وترباطهم، وإعانة الفئات المحتاجة فيه، ودعم مؤسسات الخير والدعوة والعطاء.

فالوقف استثمار رابح للمستقبل القريب؛ لأنه استثمار مع رب العالمين، فالمال طريق عظيم للجنة، وباب واسع من أبوابها، فتسعة من العشرة المبشرين بالجنة هم من أصحاب الأموال - هم العشرة باستثناء أبي عبيدة رضي الله عنه -، وقد كان المال بعد فضل الله ومنته أحد أهم أسباب بلوغهم رضوان الله وجنته. والوقف: علوٌ للواقف، وعزيمة مؤكدة للقضاء على الجشع والشحّ وحُبّ الذات؛ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان..) متفق عليه. وفي هذا الحديث لفظة نبوية للمبادرة قبل فوات الأوان.

وتعظم المصيبة عندما يفرط الإنسان في الوقف أو الوصية ويأمل نفسه في أنه سيوصي، لكنه يهمل ويعول على المستقبل وينشغل حتى يفجأ الموت ولم يوص، فيكون قد أتى من قبل تضيّطه.

(٢) الإسعاف في أحكام الأوقاف لإبراهيم الطرابلسي، ص ٢.



تجارب عالمية وإقليمية في الأوقاف

أوقاف جامعة هارفارد HMC:

تتولى «شركة إدارة أوقاف هارفارد» شؤون أوقاف جامعة هارفارد، وقد تأسست في عام ١٩٧٤م، وهي شركة فريدة من نوعها بين شركات إدارة الاستثمار؛ فهي تدير الشؤون المالية لأكبر وقف جامعي في العالم (وقف جامعة هارفارد) بلغ حجمه في عام ٢٠١٢م (٣٠,٤٣٥) بليون دولار أمريكي. تقوم شركة هارفارد على تحقيق نتائج استثمارية طويلة

الأجل لدعم الأهداف التعليمية والبحثية للجامعة، وتتبع أسلوباً فريداً في إدارة الاستثمار تُطلق عليه «النموذج الهجين»، حيث تقوم بإدارة أموال الوقف من خلال خبرائها داخل الشركة، وكذلك من خلال العلاقات المتميزة مع خبراء ومديرين خارج الشركة، حيث إن هذا النهج يوفر نظرة ذات عمق واتساع للسوق. تمتلك شركة HMC فريقاً متخصصاً في منصة تداول «الأسواق العامة»، وفريقاً آخر لمنصة تداول «الأصول البديلة»، واللذين يعملان على إدارة الاستثمارات في تلك المنصات بطريقة احترافية تمنح الشركة المرونة الكاملة والذكاء في التعامل مع تقلبات الأسواق والاستجابة المباشرة لها. وقد حققت نمواً كبيراً في رأس المال كما هو موضح في الجدول:

Harvard University	Institution
30.435	2012 (billion USD)
31.728	2011 (billion USD)
27.557	2010 (billion USD)
25.662	2009 (billion USD)
36.556	2008 (billion USD)
34.635	2007 (billion USD)
28.916	2006 (billion USD)
25.473	2005 (billion USD)

تتميز منهجية شركة هارفارد في الاستثمار بعدة سمات، أبرزها:

- التركيز على النتائج المالية طويلة الأمد.
- استراتيجية متكاملة للاستثمار وإدارة المخاطر.
- التنوع الأمثل لمشاريع الحقيبة الاستثمارية.
- تحقيق أهداف جامعة هارفارد القريبة وبعيدة المدى.
- مراقبة احترافية معقدة لمخاطر الحقيبة الاستثمارية.

تتمثل مجالات صرف عوائد استثمار أوقاف هارفارد في البرامج الأكاديمية والزمالة الجامعية والأبحاث الطبية والعلوم، إضافة إلى برنامج (الأساتذة) الذي ينسق على الأستاذ الجامعي، معضياً بذلك الجامعة من دفع رواتب الأساتذة، ومن ثم يمكن لها تعيين مزيد من أعضاء هيئة التدريس، محققة نسبة مرتفعة للأساتذة على الطلبة.

كما أن من أهم مجالات الصرف برامج المساعدات المالية للطلاب (المنح الدراسية) التي تُمنح للمتفوقين والمميزين، ما يجعل الجامعة قادرة على استقطاب وتبني الطلاب المتميزين بغض النظر عن قدرتهم المالية، حيث إن ٦٠٪ من طلاب جامعة هارفارد يحصلون على المساعدات المالية من الجامعة بقيمة إجمالية تتجاوز ١٦٠ مليون دولار سنوياً.

ويا لله العجب من إنسان يملك الثروة الطائلة يموت وهو لم يوقف أو يوص، وحينئذ يكون قد حرم نفسه من خير هذه الثروة، فكان عليه حسابها ولغيره غنمها، أفنى عمره في جمع المال وتعداده، وكأنه خزانة لمن بعده، والرابح منهم من ذكره أحد ولده بخير فتصدق عنه حيناً، وقد يكون نسيه في أحيان كثيرة.

والموفق حقاً من كان مفتاحاً للخير سبباً في إرشاد الناس ودلائهم على الوقف أو غيره من أبواب البر والإحسان، فإن تولى أهل المنهج القويم والدين الرشيد عن ذلك، قام به غيرهم. ولقد سارت الأخبار بنبا رجل الأعمال الأمريكي بيل غيتس وأثره وعمله الدؤوب في التأثير على رجال الأعمال من بني جنسه، حيث أثر في العشرات منهم لوقف نصف ثروتهم، وليس العجب هنا، لكن العجب يأخذك عندما تعلم أنه قد تعدى في دعوته وهمته للوقف أبناء قومه حتى وصل لبلاد المسلمين! فقد كتب لأحد رجال الأعمال في بلاد الحرمين يحثه على الوقف ويرشده إليه! بل يعرض عليه خدماته في تولي تنظيم وقفه وإدارته! وغير بعيد من الأول المذبة الأمريكية التي أقنعت أحد عشر ثرياً أمريكياً بوقف نصف ثروتهم!

وأخيراً: فإن الوقف هو الملك

الحقيقي للمال! فمن أراد أن يتقل معه شيئاً من أمواله للأخرة فعليه بالوقف، وذلك هو الاستثمار الحقيقي للمستقبل.



د. عصام بن حسن كوش

المدير التنفيذي للوقف العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز - جدة.